الطبقات الشعبية : ستدفع الثمن الاكبر

تحت غطاء "الحرب الاهلية" والدمار :

النظام يشجّع الهجرة ويراهن على الطائفية في صفوف العمّال

بقلم : مصطفى مراد

ليس بوسع المراقب حتى الآن ان يكوّن صورة شاملة عن حجم الخسائر التي تعانيها الطبقات الشعبية في احياء الازمة . ان غياب الاحصاءات الدقيقة واتساع الازمة لشمل القطاعات المتمركزة والقطاعات المتبعثرة يجعل من الصعب معرفة حجم البطالة المستجدة . بالاضافة الى حالات شبه البطالة وتخفيض الاجور والمكاسب . هذا الى حالات الهجرة .

مع ذلك يمكن القول ان البطالة التي افرزتها الحرب لاتهدد شمال صاحب قطاع الخدمات والفنادق والتجارة . وقطاعات الصناعة الاساسية : النسيج والميكانيك والاحذية . هذا عدا عمال الصغيرة التي تتطلب مهارات محدودة . وقد بلغ حجم العمال والموظفين المصرفيين او الذين ستخفض اجورهم الى النصف او اكثر عشرات الالاف .

وبالاضافة الى ذلك تستمر الاسعار في الارتفاع وخاصة اسعار مواد الاساسية : الخبز السكر والارز .. فمثلا مجرد اعادة محاولة لتعديل الطبقات الفقيرة جزءا يسيرا من النتائج الاقتصادية اللازمة .

بالمقابل . يرتفع حجم الهجرة الى درجة لم تعرفها البلاد منذ سنوات عديدة ويبدو ان اكثرية المهاجرين من ذوي الاختصاصات المهندسين كالمهندسين والاطباء والمتعهدين والتجارين والحدادين والدهانين . واختصاصيي الراديو والتلفزيون وميكانيكيي السيارات . ويتجه هؤلاء اما الى دول الخليج - السعودية . قطر . البحرين . دولة الامارات . الكويت . أو الى افريقيا واميركا واوستراليا .

اسباب الازمة سبقت القتال

ويبدو للوهلة الاولى ان كل هذه الظواهر من نتائج حرب لعشرة اشهر . وان البلد ما كان ليصل الى هذه الدرجة من الانهيار والانحطاط لولا حالة التدمير والتعطيل التي سببت جميع المرافق طوال ما يقارب السنة . وهذا صحيح الى حد ما . وهو ينطبق على لبنان . تماما كانطباقه على اي بلد خارج من وطأة حرب اهلية مدمرة .

لكن حجم الخراب الذي اصاب البلد ينبغي ان لا يغيب عن الانظار . ان هذه المتاعب التي تعصف باوضاع الطبقات الشعبية ليست نتاجا للحرب الاهلية سوى بمقدار ما ان هذه الحرب الاهلية هي نتائج للتأزم الاقتصادي والاجتماعي في لبنان في السنوات السابقة . بكلام اخر ، ان البطالة وشبه البطالة والهجرة مستمرة منذ ما قبل سنة ١٩٧٥ ، وهي كانت ستتوسع في اي حال حتى لو لم يندلع القتال على الارض اللبنانية .

ان مظاهر تعقد على اوضاع الاقتصاد منذ أوائل السبعينات تستشف وجود اتجاه مستمر لتخفيض حجم العمالة ، بالنسبة للعمال العاديين وخاصة للمستقين ، واتجاها موازيا لتخفيض قيمة الاجور اما عن طريق الغلاء الفاحش ، أو عن طريق تجميد العلاوات والمكاسب الاضافية . والواقع ان اخطر ما في ذلك التطور لم يكن تاثيره على الطبقات الاكثر فقرا - عمال المصانع والفلاحين الصغار - وانما شموله للطبقة الواسعة التي تلقت قسما لا باس به من فتات مكاسب البرجوازية اللبنانية والبرجوازية الاجنبية العاملة في لبنان . ولا سبيل الى فهم الاتجاهات الاحتجاجية التي شملت معظم اوضاع ما يسمى « الرأي العام » في لبنان في السنوات الاخيرة ، اذا لم ننتبه الى ان هذا الرأي العام يمثل بالدرجة الاولى الطبقة المتوسطة المحافظة والتي دفعتها اوضاعها الى التذمر . وقد كان لتذمر الطبقة الوسطى اثر بالغ في افساح المجال أمام سماع اصوات العمال والفلاحين الفقراء - تلك الاصوات التي ظلت مسحوقة في العقود الماضية تحت وطأة دعم الطبقة الوسطى للنظام وتهليلها له .

★ ★ ★

هكذا يمكن القول ان توقيت الازمة في هذه المرحلة بالذات كان معبرا تماما عن اشتداد حدة الصراع الطبقي وعن اتجاه اليمين لخطورة انحياز الطبقة الشعبية لاوسع عدد والاقوى مكانة الى جانب الاتجاهات اليسارية والاصلاحية . وكان اضفاء الطابع الطائفي - بشكل دموي جدا - على الصراع افضل وسيله في يد اليمين لاسباق تطور الصراع الطبقي الى درجة الخطر .

دور الطبقة الوسطى

ان الراسمالية اللبنانية وعت جيدا لهذا الترابط العميق بين ازمات النظام لتساعد للقتال ومتاعب الجماهير الحالية . فقد بدا حزب الكتائب منذ ما يقرب من السنتين الى مخاطر تدهور أوضاع الطبقة الوسطى على النظام . وكانت تعبئته منصرفة الى كسب هذه الطبقة بالذات الى صفوف الحلول الفاشية . ومؤخرا ، اعاد مروان اسكندر في « النهار » التذكير بان الطبقة الوسطى التي توسعت في سرعة بين العامين ١٩٦٠ و ١٩٧٣ « عادت وتضاءلت نتيجة موجة الغلاء عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ » .

ويتحدث الكاتب نفسه عن ظاهرة البطالة من زاوية لا تتصل اطلاقا بالحرب الاهلية : «فالحكومة قد ترحب في توفير العمل لاكبر عدد ممكن من اللبنانيين في لبنان وقد تسعى الى ذلك حتى عن سبيل ايفاء نشاطات كانت غير اهل للاستمرار ، وهي بهذا الاتجاه خطا كبير ذلك أن الصناعات والخدمات التي كانت مهيأة للاندثار لولا المنح المباشرة وغير المباشرة يجب أن تزول لتحل محلها نشاطات اخرى ذات مردود افضل ... » (مروان اسكندر ، النهار ، عدد ٩ شباط) .

ما العمل اذا ؟ « في هذا المعرض لا بد من لفت الانتباه الى فرص العمل الضخمة المتاحة في العالم العربي لاصحاب الخبرات سواء اكانوا من العمال ذوي المهارات البسيطة ام من المهنيين ذوي الاختصاص العالي ، وهؤلاء يستطيعون الحصول على شروط تمكنهم من ادخار واعادة التوظيف في لبنان . ومن المؤكد ان اللبنانيين العاملين في الدول العربية كانوا الدعامة الاولى لميزان المدفوعات اللبناني وفي لامكان ان يتعزز هذا الدور بهجرة مؤقتة لالاف من اللبنانيين الى مختلف انحاء العالم العربي . وهذا الامر يفسح في المجال امام توظيف اللبنانيين الشباب في لبنان وصمهم الى كادرات العمل بدل أن ينضموا الى صفوف العاطلين عن العمل والمرشحين للاندفاع وراء العدد الاجتماعية وان يحمل البندقية » !!

المراهنة على الطائفية

هكذا يعود النظام الى « صمام الامان » التقليدي : التخلص من اليد العاملة الفائضة ، وتصدير النقمة الاجتماعية . لكن النظام يملك حاليا تعطيلا بارعة لنتائج ازماته :

● فالمتاعب الشعبية هي ، في نظر اعلام الجماهير ، نتاج القتال والتدمير . واذا ، فالنظام ليس المسؤول الاول والاخير !

● من جهة اخرى فان الاجواء الطائفية يمكن ان تتكفل ، ولسنوات عديدة قادمة ، بتفرقة صفوف العمال والموظفين ومنع انصهارهم ضمن تحركات مطلبية أو اجتماعية . الى جانب ان التخوف من اندلاع العنف مجددا سوف يكون حافزا لعدم تصلب فئات الشعب المختلفة تجاه تعنت النظام .

■■

ابراهيم عامر

شهيد آخر في المعركة..

اسفر الاعتداء الذي وقع على جريدتي « المحرر » و « بيروت » في مستهل هذا الشهر عن اصابة الزميل ابراهيم عامر بحروق شديدة نقل على اثرها الى المستشفى . وظل ابراهيم عامر يصارع الموت اياما طويلة الى ان عجز الاطباء . مات ابراهيم عامر وانضم الى الشهيد نايف شبلاق الذي استشهد في نفس هذا الاعتداء ، والى شهداء اخرين للصحافة الحرة في لبنان .

عرفنا ابراهيم عامر كمناضل وكاتب وصحفي منحاز الى معسكر الشعب والقوى الوطنية التقدمية العربية والعالمية . وقد تعرض للتنكيل والاضطهاد مرات عديدة كان آخرها اعتقاله في مصر لمدة خمس سنوات منذ عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٦٤ ثم فصله من العمل في شباط عام ١٩٧٣ على يد اليمين الرجعي الحاكم في مصر مع أكثر من مائة كاتب وصحفي مصري . واختار ابراهيم عامر أن يبحث عن منابر يعبر فيها عن أفكاره بكلمته الحرة الشجاعة ، وجاء الى بيروت ليقف الى جانب الثورة الفلسطينية والقوى التقدمية العربية بالكلمة والموقف . لقد عرفناه ايضا من خلال مقالاته التي يندد فيها باتفاقية سيناء التي عقدها النظام المصري مع العدو الصهيوني ، ويسخر من المزاعم القائلة بأن امريكا قد غيرت موقفها لصالح العرب ، ويدعو للتصدي للمؤامرات الامبريالية والرجعية عن طريق وحدة القوى الثورية العربية .

وقبل ذلك ظل ابراهيم عامر أكثر من ثلاثين عاما يناضل ضد نظام الملك فاروق وضد القوى الرجعية واليمينية في مصر بعد ثورة ٢٣ تموز ، ورفض مساومات عديدة كانت تستهدف اغراءه على تغيير أفكاره ومواقفه ، وكتب ابراهيم عامر دراسته القيمة الباقية عن المسألة الزراعية في مصر والتي ما زالت تشكل مرجعا ضروريا لكل من يدافع عن حق الفلاحين في الارض وفي تحرير انفسهم من الاستغلال ، وحاولت بعض العناصر الرجعية في الاوساط الصحفية في مصر حمله على العودة للعمل في ظل النظام القائم ولكنه رفض ذلك كما رفض غيره من ابناء مصر الابرار الاستسلام والرضوخ لارادة الاستعمار والقوى الرجعية الحاكمة في مصر مثل الشهيد البطل اسماعيل عبد العظيم اسماعيل الذي حطم كل اغلال الرجعية واستشهد في عملية فدائية انتحارية .

كان ابراهيم عامر يرفض أن يلوث تاريخه وقلمه بالعمل في مجلة رجعية معادية للشعب « المصور المصرية » رغم اغراءات المناصب . فقد كرس نفسه لرسالة نبيلة حرص حتى النفس الاخير على ادائها ، ولم يتردد في مواصلة دوره رغم الاحداث الدامية التي وقعت في بيروت على يد الرجعية والفاشية المتزمتة . واعتبر أن الكاتب الصحفي الملتزم يجب ان يبقى في موقعه وخاصة اذا كان هذا الموقع يشهد صداما مصيريا بين قوى الثورة وقوى الردة والرجعية والتخلف .

وكان ابراهيم عامر وجها مشرقا للصحافة المصرية وللصحفيين المصريين الشرفاء ، وها هو يسقط شهيدا للصحافة العربية وهو يؤدي مهمته الجليلة ويدافع عن القيم الثورية التي تعاهده على أن ندافع عنها حتى النهاية تكريما لذكراه .

ان اسرة تحرير الهدف وهي تشعر بالالم لفقدان هذا الكاتب الفذ من عالم الصحافة لتذكر بأن العديد من الشهداء قد قضوا نحبهم على هذا الطريق بدءا من الشهيد غسان كنفاني الذي صعقت كلماته العدو الصهيوني والقوى الرجعية مرورا بشهيد الصحافة عادل أبو يونس وشهيد الهدف كمال ابو راضي وغيرهم من الشهداء الذين سقطوا على يد الرجعية والقوى الفاشية وهم كثيرون . ان عزاء الصحافة الوحيد في هذا الميدان وازاء الطعنات المتلاحقة التي توجه الى الكلمة الحرة هو أن مثل هذه الفواجع لن تزيدنا الا عزما واصرارا على المضي في الطريق حتى تحقيق الانتصار وتأمين حرية الكلمة للجميع .

اسرة تحرير الهدف